مـاذا سيحدث بعد ٥ شباط؟
الانظمة العربيـة بـين العجز والصلح المنفرد !!

أيام قليلة وتأتي الخامس من شباط ، فتنتهي فترة وقف اطلاق النار الثانية على جبهة قناة السويس ، والسؤال الذي يتردد في كل مكان هو : ما الذي سيحدث عند ذاك ؟

الجمهورية العربية المتحدة ، ما تزال تعلن عن اصرارها على عدم تجديد وقف اطلاق النار ما لم تتوفر خطوات جدية باتجاه تنفيذ قرار مجلس الامن ، والصيغة التي تقترحها ، وتطالب بخطوات جدية في اتجاهها ، هي فرض الحل من قبل الدول الاربع الكبرى ، وارسال قوات مشتركة من قبل تلك الدول لتفرض الامن على طرفي الحدود التي ترسمها الصيغة التي تصل اليها تلك الدول لتنفيذ ذلك القرار ، وترى المتحدة ان الخطوة الاولى التي تعتبرها المتحدة ، جدية في هذا الاتجاه وتجعلها توافق بالتالي على تجديد وقف اطلاق النار هي « ان يجتمع مجلس الامن ويتخذ قرارا يلوم فيه اسرائيل لعرقلتها محاولات تنفيذ قرار ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧ » . او على الاقل هذا ما كتبه اريك رولو ، الكاتب الفرنسي المطلع على الشؤون السياسية في الجمهورية العربية المتحدة.

الا ان اسرائيل (وان كانت قد أسقطت فصة الصواريخ ، بعد المساعدات العسكرية والاقتصادية الاميركية الكبيرة التي حصلت عليها ، وبعد التغيرات التي طرأت على الوضع بشكل عام) ما تزال مصرة على مختلف الشروط التي كانت تقف عندها منذ البداية ، كاشتراط المفاوضات المباشرة بين الاطراف الداخلة في « النزاع » كخطوة تصل من خلالها تلك الاطراف الى الاتفاق على « حدود جديدة آمنة ومعترف بها تنسحب اليها القوات فيما بعد » وعلى « حل مشترك لقضية اللاجئين » والى الاتفاق على وثيقة صلح كاملة تحدد فيها العلاقات بين تلك الاطراف . واسرائيل في كل ذلك مصرة على رفض اي اشراك او وصاية من قبل الدول الكبرى او حتى مجلس الامن ذاته، وتطالب الان ان يجري تمديد غير محدود لوقف اطلاق النار على قناة السويس ..

فهل يعني هذا الاختلاف الكبير بين وجهتي النظر ان وقف اطلاق النار لن يجدد وان القتال سينشب من جديد على قناة السويس بعد وقف دام حتى الان ستة اشهر ؟

الموضوع في الحقيقة ليس مجرد اسود او ابيض ، فقد لا ينشب القتال مجددا وتتعثر مع ذلك محاولات الوصول الى حل سلمي .. وقد يحدث العكس ايضا فينشب القتال وتتسهل تلك المحاولات .. فالقتال او وقفه ليسا الا مناخين تجري في ظلهما عربة الحل السلمي التي قد يلائمها او لا يلائمها في ظل ظروف محددة هذا او ذاك من المناخين .. والطريق الاكثر وضوحا لفهم الصورة السياسية الحقيقية للوضع ، هو استقراء المراحل الماضية من وقف اطلاق النار وتحديد التغيرات والاتجاهات الجديدة التي ادخلتها تلك المراحل على الوضع السياسي والعسكري .

سياسيا : ما الذي تريده الجمهورية العربية المتحدة من اصرارها على مشاركة الدول الاربع الكبرى في الوصول الى حل ؟. ان الدول الكبرى المطلوب ان تشارك عن طريق مجلس الامن مفروض فيها الالتزام بقوانين الامم المتحدة التي تحرم بكل وضوح عملية الاستيلاء على الاراضي عن طريق الحرب ، وهي بالتالي ستكون ملزمة بتأمين الانسحاب الاسرائيلي الكامل . كما انها وبوجود قوات مشتركة لها على طرفي الحدود ، ستتكفل هي بدلا من غيرها بحماية تلك الحدود ليس من العرب بشكل عام والمقاومة الشعبية العربية والفلسطينية بشكل خاص ، بل وايضا حماية الاراضي العربية من اسرائيل ذاتها . يضاف الى ذلك ان فرض الحل من قبل الدول الكبرى سيجعل الانظمة العربية اقل احراجا في مواجهة شعوبها بقبولها أمرا واقعا مفروضا من قبل الدول العظمى التي لا يمكن رد ارادتها الكبيرة .

بينما تعتمد اسرائيل في رفضها تلك الصيغة ، على المعطيات ذاتها التي يعتمد عليها الطرف العربي الرسمي . فهي تعي ان تعديلا في الحدود لا يمكن الوصول اليه الا عن طريق التنازلات المباشرة التي يقدمها صاحب الحق في الارض المعرضة للتعديل .. كما انها بطموحها الاقتصادي والسياسي للسيطرة على المنطقة باسرها ترفض وصاية الدول الكبرى التي سيسهل وجودها في المنطقة عمل كل منها لصالحها الخاصة ، مما يعرقل التوسع الاقتصادي والسياسي لاسرائيل ، واميركا التي تؤيد اسرائيل في هذا الموقف ، لا تؤيدها نتيجة السيطرة الصهيونية على سياسة الولايات المتحدة وحسب ، وانما ايضا لانها لا تريد ان تشاركها اي دولة اخرى كالاتحاد السوفياتي وفرنسا وبريطانيا ، ذلك الوجود الذي تعمل له في المنطقة عبر مساعدتها الكاملة لاسرائيل . وهذه النقطة بالذات ، هي التي تجعل موقف بريطانيا وفرنسا يختلف عن الموقف الاميركي في هذه المرحلة ، ويتجه نحو الموقف الفرنسي الاول الذي كان السباق الى اقتراح الوصول الى حل عن طريق الدول الاربع الكبرى .

من كل ما تقدم يتضح ان الطرف الاخر (اي اسرائيل) ومن ورائها بشكل علني ومكشوف الولايات المتحدة ، ما تزالان مصرتين على الموقف الاسرائيلي المتصلب ..

وان اي تغير ملموس لم يطرأ على موقفهما خلال الفترة الماضية .. وانه بدون ان نطرأ مثل ذلك التغير ستكون كل محاولات الطرف العربي السياسية مجرد نطح للصخر .. الا اذا كانت هنالك قوى في الطرف العربي قادرة على فرض ذلك التغير ، فحتى الحل السلمي يحتاج الى القوة .

عسكريا : خلال مرحلتي وقف اطلاق النار اللتين دامتا حتى الان ستة اشهر ، لا بد وان تكون قد طرأت تغيرات على ميزان القوى بين الطرفين .. فما هي هذه التغيرات وما هي الانعكاسات التي لا بد ان ترتسم نتيجة لها على الوضع السياسي ؟

كان واضحا منذ البداية ان الحل السلمي بالصورة التي تعلن الانظمة العربية انها ساعية نحو الوصول اليه ، يحتاج الى قوة او مجموعة قوى للضغط في اتجاهه .. فهو بالصورة المشار اليها اعلاه ، يفرض على الطرف الاخر تنازلات معينة لن يكون مستعدا للتبرع بها طوال ما هو شاعر بقدرته على عكس ذلك .. وكان واضحا ايضا ان قوى الضغط التي يمكن ان تتوفر (بجهد) للجانب العربي الرسمي من أجل ذلك هي : القوة العسكرية المصرية التي يعاد بناؤها وتطويرها بمساعدة الاتحاد السوفياتي ، والقوى العسكرية للدول العربية الاخرى على الجبهة الشرقية في حال تطويرها والتعاون والتنسق فيما بينها ، ثم التعاون والتنسيق بين الجبهتين الشرقية والغربية . والى جانب هذه القوى بشكل فاعل فعلا ايجابيا تقف قوة المقاومة الفلسطينية .. هذا هو سياق القوة الذي كان منطقيا ان تراه الدول العربية ، ليس كطريق تحرير ، وانما حتى كطريق لا بد منها نحو الوصول الى الحل السلمي الذي تسعى اليه هذه الدول .. واي بحث عن تطور القدرات العربية في طريق انتزاع التنازلات المؤدية للحل السلمي ، لا يمكن ان يكون باستقراء التنازلات المتصاعدة التي يقدمها الطرف العربي الرسمي ، وانما باستقراء التغيرات التي تحدثها السياسات العربية الرسمية في سياق القوة المذكور . فاي تغيرات ايجابية او سلبية جرت خلال اشهر وقف اطلاق النار ؟

بالنسبة للجبهة الغربية (قناة السويس) ، لا شك في ان الجمهورية العربية المتحدة بمساعدة الاتحاد السوفياتي ، قد طورت قدراتها العسكرية تطويرا هاما ، على صعيد الدفاع الذي جعلته شبكة الصواريخ مع مجموعة الاستعدادات الاخرى ، اكثر منعة مما مضى ، وعلى صعيد الهجوم التكتيكي بواسطة الصواريخ الجديدة (ارض – ارض) وايضا مجموعة استعدادات اخرى .. الا ان هذا التطوير على اهميته الكبيرة يبقى قوة ردع اكثر مما هو قوة ارغام ، يبقى قوة تحمي تصلبا عربيا واحجاما عن تقديم تنازلات جديدة ، لكنه غير قادر على الصيرورة قوة تجبر العدو على تقديم تنازلات ، فطبيعة الجبهة الغربية بالاساس لا تقدم للعرب من الناحية الستراتيجية معطيات تمكنهم من ضرب العدو ضربات موجعة الى حدود اجباره على اتخاذ هذا او ذاك من المواقف ، اذ لا شك ان سيناء تختلف اختلافا كليا عن الضفة الغربية للقناة ، من حيث انها غير آهلة بالسكان من ناحية ، ومن حيث انها « ارض ليست اسرائيلية » من ناحية ثانية ، فهي تشكل بالفعل طوق حماية للمجتمع الاسرائيلي من الضربات العربية الممكنة في تلك الجبهة .

اما الجبهة الشرقية ، فرغم انه من الاساس لم يكن هنالك جدية كافية لايصالها الى مستوى من الفاعلية عال ، فان مؤتمر وزراء الخارجية والدفاع الذي انعقد في طرابلس ، قد اوصى بتمزيقها الى جبهتين شرقية وشمالية بدلا من ان يوصي بدعمها وتطويرها وتنسيقها مع الجبهة الغربية .. ومراقبة محايدة لتلك الجبهة تكشف انها قد غدت خلال اشهر وقف اطلاق النار اكثر « افراطا » بكثير مما كانته قبل ذلك .

اما عن المقاومة ، فنجدها خلال فترة وقف اطلاق النار قد تعرضت لهجمات وضغوطات شتى .. هجمات اعلامية وسياسية من قبل مجموع القوى والسياسية المهيمنة على الوضع العام ، استهدفت محاصرة علاقاتها مع الجماهير العربية ثم تناقضاتها وتمزيقها من الداخل تعرضت الى سلسلة من الحجاز في مكان تواجدها الرئيسي الساحة الاردنية .. فمباشرة بعد اطلاق النار على جبهة القناة ، النظام الاردني حرب استنزاف على الارض الاردنية مع المقاومة الفكانت الاشتباكات اليومية التي طريقه نحو انهاك المقاومة واستومحاصرتها ، ونحو ترويض الجوفكفكة تلاحمها مع المقاومة .. فترة من حرب الاستنزاف هذه ظروف سياسية ، اوحت اميركا للانظمة العربية بسراب تنازلات صعد النظام الاردني تلك الحرب الى مجزرة بربرية قل ان عرف التامثيلات لها ببربريتها ووحشيتها ، بتدخل عربي عام ، عبر عن ببروتوكولات « حكماء » العرب ، وجد فيها النظام الرجعي الصيغة التي يتمكن بها من محاصرة المقاووضعها تحت رحمة قواته العميقة راحت الولايات المتحدة تدعمها هائل سرا وعلنا ، حتى اذا ما لاحت اول فرصة لتحقيق اهدافه الخاصة كان مستعدا للقيام بحملة ابادة من جثة المقاومة جسرا يصل فوقه الى تحقيق تلك الاهداف .

من هذه النظرة الاجمالية على الوضع العربي السياسي والعسكري ، نرى ان لم تتطور لدى الطرف العربي الرسمي قوة تكفي حتى تفرض تنازلات لتحقيق الحل السلمي ، بل ان قوة الرفض ذاتها قد انزلت بها ضربات قوية جعلت الطرف العربي ليس اقل قدرة على فرض التنازلات وحسب ، بل واقل قدرة على رفض التنازلات من جانبه هو .

والتنازلات العربية المحتملة الشيء يعكسها ميزان القوى الجديد لن تكون هذه المرة عبر موضوعة القبول او عدم القبول بتجديد قرار وقف اطلاق النار على الجبهة الغربية ، بل هنالك اتجاه آخر لها اكثر خطورة بكثير ، هي في ان يقدم النظام الرجعي الاردني العميل على تحقيق صلح منفرد مع اسرائيل ، وفي الجو دلائل كثيرة توحي بذلك ، من رسالة الملك الى اخيه الامير ايام المجزرة الاخيرة حيث يؤكد فيها ان القضية (ويقصد القضية الفلسطينية) هي قضية اردنية داخلية ، لا يسمح لاي طرف (يقصد العرب) بالتدخل فيها ، الى هجوم النظام الرجعي الاعلامي على نظام ليبيا ذلك الهجوم الذي يجري حاليا .. ويكون السياق العام لمخطط الرجعية الاردنية نحو الصلح المنفرد كما يلي :

المطالبة بالتدخل العربي داخل الاردن من أجل الاستقواء بذلك التدخل للهجوم على المقاومة .. ثم بعد ذلك اخراج « العرب » من قضية الاراضي «الاردنية» المحتلة . ثم التحول الى مواقع الهجوم على الانظمة العربية الاخرى ، كمقدمة نحو قطع الورقة لها نهائيا والانفراد في الوصول الى حل سلمي خاص مع العدو الاسرائيلي .

عدنان بدر